

طبيعة الإنسان فى القرآن

أ.د. حامد طاهر

تمهيد :

سبق أن كتبت بحثا مفصلا عن (نظرية خلق الإنسان فى القرآن) مستخدما منهاج يقتصر فقط على الآيات القرآنية الواردة فى الموضوع، والى تتناول مراحل خلق الإنسان (قبل، وأثناء، وبعد الخلق) وذلك دون الرجوع أوالمقارنة بنظرية داروين فى التطور، والى أفاض فيها معظم الباحثين العرب، وفى رأى أنها لم تثبت صحتها بالكامل حتى اليوم - انظر البحث على موقعى بالإنترنت [www.hamedtaher.com] وعدد زواره حتى الآن 1132796

وفى هذا البحث الحالى ، حاولت أن أتتبع — بنفس المنهج — الصفات التى وردت فى القرآن الكريم متعلقة بطبيعة الإنسان . والملاحظ أن معظمها صفات سيئة تطلعنا على حقيقة الإنسان ، وتجعلنا نتوقف عن الدهشة من سلوكه وتصرفاته مع بنى جنسه من ذاحية ، وفى البيئة المحيطة به من ذاحية أخرى.

وعلى الرغم من أن الله تعالى قد كرم الإنسان ، وخلق له فى أحسن تقويم ، وسخر له ما فى السماوات والأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فإن صفاته السيئة تلك هى الغالبة عليه ، وهى التى تدفعه إلى نكران الجميل ، وعدم الاعتراف بالنعمة الإلهية التى تحيط به من كل جانب ، وتجعله يخرط فى مسالك الكفر والشرك والنفاق ، وبذلك يستحق غضب الله وعقابه ، وهذا ما يؤكد القرآن الكريم فى كثير من آياته :

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) [يوسف103]

(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) [الأنبياء98]

(ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) [المسجدة13]

(فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) [البقرة24]

لكن المؤمنين الذين توصلوا إلى معرفة الخالق بعقولهم ، وجاءتهم الرسالة لتؤكد لهم ما توصلوا إليه ، هم الذين سوف يتغلبون على مكائد الشيطان ، ويستحقون الجائزة الكبرى من الله تعالى ، وهى الخلود فى الجنة ، والتمتع برضوان الله .

خلق آدم وهبوطه إلى الأرض :

عندما شاءت إرادة الله أن يجعل فى الأرض خليفة ، عرض الأمر على الملائكة ، الذين سألوهم متعجبين :

— (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسير بحمرك ونقدس لك)؟!

أجابهم جل وعلا بقوله :

— (إنى أعلم ما لا تعلمون)(البقرة 30)

وتمَّ خلق آدم من طين الأرض (من حمأ مسنون ، من صلصال كالفخار) ومع ذلك جاء في أحسن تقويم (الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أى صورة ما شاء ربك) [الأنفطار 7] ونفخ فيه من روحه ، فدبَّت فيه الحياة ، وعَلَّمه الله الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرضوها عندئذ أمرهم بالسجود لآدم ، فأطاعوا كلهم ما عدا إبليس الذي اعترض بأفضليته على آدم ، المخلوق من الطين ، بينما هو قد خلق من النار ! ولذلك استحق غضب الله ، ولعنته ، لكن إبليس طلب من الله أن يتركه حيا إلى يوم القيامة متوعدا آدم وبنيه أن يضلهم عن سبيل الله ، وقد استجاب الله له ، لكنه أخبره أنه لن يكون له سلطان على المؤمنين الأتقياء .

ثم أمر الله آدم وزوجته أن يسكنا في الجنة ، ويتمتعوا بخيراتها واشترط عليه ألا يقرب شجرة معينة لكن إبليس ظل يغويهما بالأكل منها على اعتبار أنها شجرة الخلد ، والتي تمنحهما الملك الذي لا يبلى .. ولذلك أخرج الله من الجنة وأنزله مع زوجته وإبليس إلى الأرض ليبدأ بين الإنسان والشیطان صراع طويل لن ينتهى إلا بقيام الساعة : (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) [البقرة 36]

إبنا آدم :

فوق الأرض ، قدّم كل من إبني آدم : هابيل وقابيل قربانيّن لله تعالى وحين وجد قابيل أن قربانه لم يقبل مثلما قبل قربان أخيه غضب منه ، ودبّ الحسد في قلبه ونتيجة لذلك أقدم على قتله وكانت تلك أول جريمة قتل في تاريخ البشرية حتى أن المقاتل لم يعرف أن يوارى جثة المقتول في التراب إلا بعد أن شاهد غرابا يقوم بدفن غراب ميت ! وقبل أن نستعرض جوانب طبيعة بنى آدم نتوقف قليلا لنلخّص المخالفات التي ارتكبت في تلك المرحلة المبكرة من بداية البشرية :

— عصيان آدم لأمر ربه في عدم الأكل من الشجرة المحرمة عليه .

— استجابته لإغواء إبليس له في الأكل منها ، وضعف عزمته .

— حسد قابيل لأخيه ، والإقدام على قتله .

والمسؤول الآن :

هل خلقَ الله للإنسان كان لغاية ، أم أنه كان عبثا ؟

يقول الله تعالى (إنا كل شء خلقناه بقدر) [المقمر 49]

(وكل شء عندنا بمقدار) [الرحمد 8]

ويقول : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) [المقيامة 36]

ويقول : (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) [الملك 2،1]

ويقول أيضا : (وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون) [الذاريات 56]

والحقائق الكبرى في القرآن تؤكد :

أن الله تعالى هو مبدع الكون، وهو خالق الإنسان، والمتكفل برزقه وبالتالي كان على هذا الإنسان أن يفكر بعقله بأن من فعل ذلك له .. يستحق إفراده بالعبادة لكن الإنسان أغمض عينيه ، وأوقف عمل عقله ، وحين جاءت الرسالة لتأخذ بيده عارضها وكذبها وفضل أن يتبع أسلافه في معتقداتهم الوثنية فوقع في الكفر ، والشرك ، والضلال ..

أوصاف الإنسان في القرآن :

تكثر في القرآن الكريم الآيات التي تصف جوانب الشر في الإنسان ومنها : الكفر ، والشرك ، وجحد النعمة ، والميل إلى الجدل ، والخصومة ، والشعور بالكبر والتجبر ، والمظلم ، والجهل ، والبخل ، والخسران ..

ومع أن الله تعالى كرم الإنسان بخلقه في أحسن تقويم

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) [المقامة4]

فإنه لم يعتبر هذه الأفضلية ،

وكفر بالذي خلقه على هذه الصورة :

(إن الإنسان لكفور) [الحج66] ، (إن الإنسان لكفور) [الشورى49]

(إن الإنسان لكفور مبين) [الإسراء67]

ويصل الأمر مداه حين تقرر الآية : (قتل الإنسان ، ما أكفره !) [عبس17]

ولهذا صدق عليه قول الله تعالى :

(ولقد خلفنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إنما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) [التين4—6]

وعلى الرغم من أن الإنسان ليس هو أقوى المخلوقات بل إنه ضعيف الجسم والقدرة ، فإنه إذا أصاب الغنى أو السلطة طغى وتجبّر (وخلق الإنسان ضعيفا) [النساء:28] (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) [العلق:6،7] وما نماذج فرعون والمنمرد عنا ببعيدة .

إن بداية خلق بنى آدم عموما تتكون من نقطة هيّنة بسيطة لكن الإنسان ينسى ذلك أو يتجاهله وخاصة حين يقوى عوده ، فيتحول إلى مخاصم شرس (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين) [يس:77]

(خلق الإنسان من نقطة فإذا هو خصيم مبين) [النحل:4]

(بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) [القيامة:5]

وتستمر الآيات في وصف جوانب الشر والضعف في طبيعة الإنسان ، فتصفه بـ :

العجلة ، والبخل الشديد ، وكثرة الجدل ، وعدم الاعتراف بالفضل ، وشدة الخوف ، والمظلم ، والجهل ، واليأس من رحمة الله ..

(خلق انسان من عجل) [الأنبياء:37]

(وكان الإنسان عجولاً) [الإسراء11]

(إن الإنسان لربه لكنود) [المكهف54]

(وكان الإنسان قتورا) [الإسراء100]

(وكان الإنسان أكثر شقاء جدلاً) [المكهف54]

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) [الإسراء83]

(إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) [المعارج19—21]

(وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) [الأحزاب72]

(وإن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم ذرناها أعرض ونأى بجانبه) [هود9]

فهل يمكن أن ينجح هذا الإنسان المتى تجتمع فيه هذه الصفات أو حتى بعضها ؟

كلا.. إنه إذن في خسران

(إن الإنسان لفي خسر) [المعصر2]

وهنا نصل إلى أسوأ صفات الإنسان التي أفاض فيها القرآن ، وهي صفة النفاق والمنفاق يعنى أن يظهر الإنسان غير ما يبطن .وتحت هذا المظهر الخادع ، يقوم بكل الأعمال المسيئة للآخرين ،مستغلا جهلهم بحقيقته ، وحسن ظنهم بمظهره . والواقع أن هذا الصنف من البشر يعتبره القرآن أسوأ من الكفار والمشركين لأن هؤلاء يصرحون بما يعتقدونه بينما المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وهم يعيشون بين المسلمين ويدبرون المكائد لهم وقد نبه القرآن الرسول (ص) إليهم :

(ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم) [التوبة 101]

كما صرح بكون الأعراب من أشدهم كفرا ونفاقا :

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا) [التوبة 97]

كما يقرر أن المنافقين والمنافقات (بعضهم من بعض) [التوبة 67]

وأن أفعالهم مهما تسترت فإن الله لهم بالمرصاد

(يخادعون الله وهو خادعهم) [النساء 142]

(والله يشهد أن المنافقين لكاذبون) [المنافقون 1]

ويؤكد أنهم (هم المفسقون) [التوبة 67]

كما يقرر انهم (لا يعلمون) [المنافقون8]

و(لا يفقهون) [المنافقون7]

ونتيجة لأفعال المنافقين الشريرة ، وما يضمرونه في قلوبهم المريضة من عداة متأصل للرسول والمؤمنين فإن عقابهم سيكون عنيفا :

(ويشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) [النساء 131]

ويضعهم القرآن مع الكفار في عقاب جهنم :

(إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) [النساء140]

(وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نارا جهنم) [التوبة68]

بل إن موقف المنافقين في جهنم سيكون أسوأ من الكفار :

(إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) [النساء145]

وإذا كانت تلك هي الطبيعة البشرية التي خلق بها الإنسان، وهي التي تدفعه من الداخل، فإنه معرض من الخارج لعدو لا يقل شرا وهو الشيطان الذي تحدى الإرادة الإلهية وأقسم أنه لن يتوقف أبدا عن إضلال الإنسان بكل الوسائل التي يتمكن بها منه .

ومنذ البداية، حذر الله خليفته في الأرض من كيد الشيطان، وأكد له أنه العدو الأول له (قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) [الأعراف:24]

(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) [طه:123]

(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو) [البقرة:36]

ويؤكد القرآن عداوة الشيطان الشديدة للإنسان بقوله :

(إن الشيطان للإنسان عدو مبين) [يوسف:5]

ويذكر أنه يوقع الإنسان في الخطيئة، ثم يتخلّى عنه :

(وكان الشيطان للإنسان خذولاً) [الفرقان:29]

ويذكر القرآن أن من بين أهم تأثيرات الشيطان في الإنسان : الدوسوسة ..التي استخدمها مع آدم وزوجته في الجنة ، والتي دعا الله الإنسان ليستعين به تعالى منها (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس .من شر الدوسواس الخناس .الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) [سورة الناس]

وقد بيّن لنا الرسول(ص) أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم !

لكن الله تعالى زود المؤمنين بحائط صد ضد مكائد الشيطان

وهى الاستعاذة الدائمة بالله منه :

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) [المؤمنون97]

(وإما ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) [الأعراف200]

وهي ضرورية عند البدء في قراءة القرآن الكريم :

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) [النحل 98]

وهكذا لم يترك الإنسان بدون دفاع ضد الشيطان بل إنه إذا أخلص في إيمانه ، وقوى توكله عليه أصبح محصّناً بالكامل من إغواء الشيطان ووساوسه . لكن تلك المخلصات السيئة التي خلق الإنسان بها والتي على أساسها تتشكل ذواياه وتصرفاته فتوقعه في الخطأ والخطيئة

وبهما يستحق غضب الله وعقاب جهنم ..هذه المخلصات يستثنى منها طائفة المؤمنين الذين أكد الله تعالى للشيطان أنه لن يكون له عليهم سلطان :

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ،إلّا من اتبعك من الغاوين) [الحجر42]

(إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون) [النحل99]

وهكذا فإن تأثير الشيطان وأتباعه لا يعمل إلّا في دائرة العصاة ، وضعاف الإيمان .

والواقع أن المنتبِع لأفعال الشيطان مع البشر يمكنه أن يجد الكثير منها في القرآن الكريم فقد كان هو السبب وراء معظم المخالفات التي تم ارتكابها .. حتى من بعض الأنبياء :

— فهو الذي وسوس لأدم وزوجته ،

بالأكل من الشجرة المحرّمة [البقرة 36] ، [الأعراف 20] ، [طه 120]

— وهو الذي أثار حسد قابيل ضد أخيه حتى قتله [المائدة 27]

— وهو الذي دفع موسى إلى قتل المصري [المقصص 15]

— وهو الذي أشعل الحسد في إخوة يوسف حتى تخلّصوا منه [يوسف 8:9، 100]

— وهو الذي يزيّن للناس الخمر والميسر والأنصاب والأزلام [المائدة 90]

— وهو الذي يوقع بين الناس العداوة والبغضاء [المائدة 91]

— وهو الذي يدعو إلى الفحشاء والمنكر [النور 21]

— وهو الذي يزيّن للناس أعمالهم السيئة على أنها حسنة [العنكبوت 38]

— وهو الذي يوقع الإنسان في النسيان [المائدة19] ، [المكهف63]

— وهو الذي يدفع المشركين إلى المجادلة بالباطل [الأنبياء121]

— وهو الذي يدفع أوليائه ليجادلوا المؤمنين في التوحيد والبعث [الأنعام121]

— وهو الذي يضلّ بعض البشر ، ثم يتركهم حيارى [الأنعام71] ..

ومع ذلك ، فإن القرآن الكريم يؤكد أن كيّد الشيطان — مهما بلغ — فهو ضعيف (إن كيّد الشيطان كان ضعيفا) [النساء76] وهو يدعو المؤمنين ألا يتبعوه ، حتى لا يصبحوا من حزبه : (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) [البقرة208] ، [الأنعام142] وحذّرهم من فتنه ، التي أخرج بها آدم وحواء من الجنة : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) [الأعراف27] .

والخلاصة : أن الشر في الإنسان يأتي من مصدريّن: الأول هو طبيعته التي خلق عليها ، وانساق لها ، فضلّته عن المصراط المستقيم ، والثاني : هي وسوسة الشيطان وإغواؤه ، واستجابته له ، واتخاذها وليّاً ، رغم تحذير الله تعالى له بأنه هو عدوه المبين .
